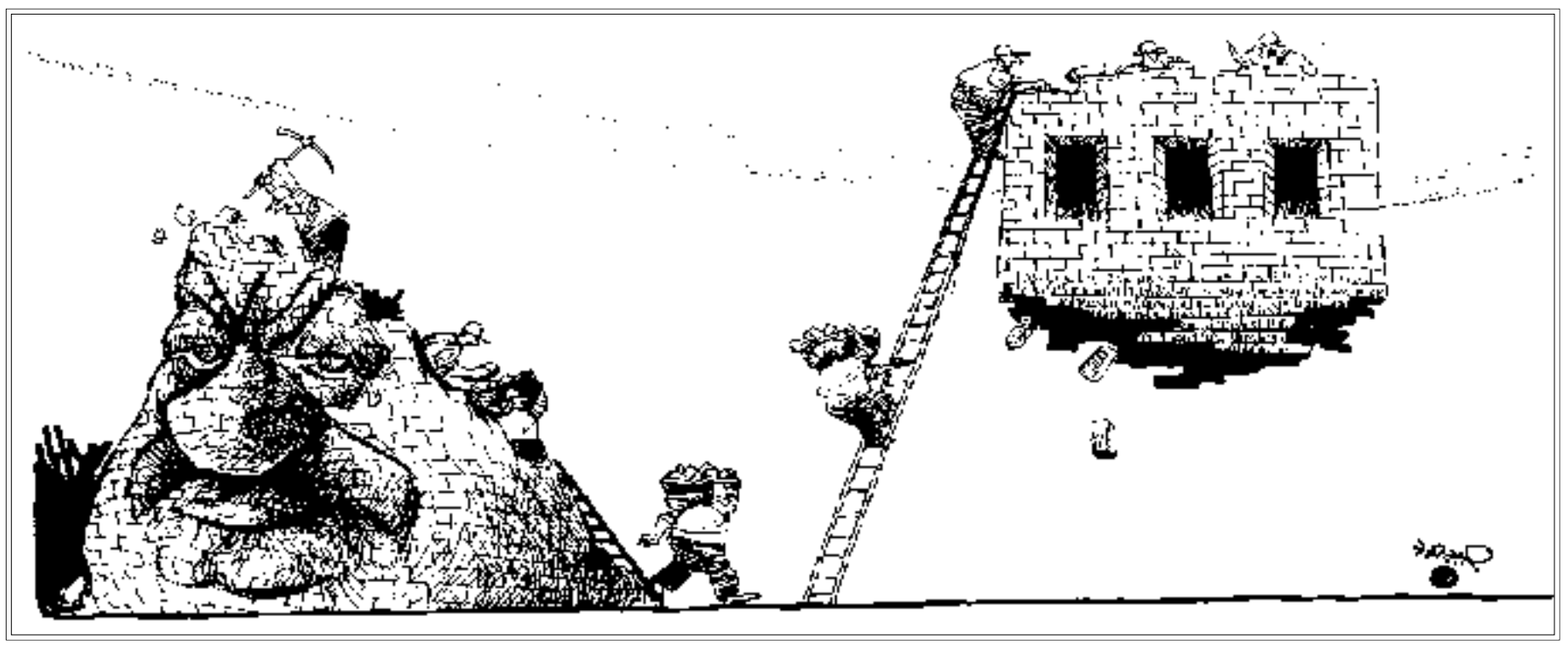

"الرباعية" نجحت خصوصاً لأنها حسمت الدور القيادي للولايات المتحدة

■ لكل من الولايات المتحدة والأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي وروسيا دور مميز في اطار «الرباعية» لدفع «خريطة الطريق» خارج مسار التدهور في اتجاه تنفيذ رؤية قيام دولتين، فلسطين واسرائيل، وسلام دائم يشمل سورية ولبنان. هذا الدور متفق على عناوينه بين أطراف «الرباعية».

الجديد ان الأمر لم يعد متروكاً للأطراف المعنية في المنطقة لترى اذا كان مزاجها أو حساباتها تسمح بالمضي في «خريطة الطريق» خطوة الى الأمام واخرى الى الوراء. والجديد ان الاستراتيجية ليست قائمة على مجرد «حض» المعنيين على الخطوات بضغط على هذا أو بنبرة على ذاك. فالتحوّل المهم الذي حصل هو ان اقطاب «الرباعية»، لا سيما الولايات المتحدة، اتخذت قراراً استراتيجياً فحواه ان «خريطة الطريق» واقع لا مفر منه «فكيف نساعدكم نحن على سلوك الطريق اليه».

«الرباعية» فكرة مهمة، فهي لم تولد أمس، وانما منذ فترة، وهي ليست ائتلافاً أو محوراً وانما تجمع دولي يشمل مختلف المقومات، من الشرعية الى المساعدات المالية الى التأثير في القاعدة الشعبية الى خطة استراتيجية لمعالجة جذرية لأزمة اقليمية.

كولن باول صبر كثيراً وساهم بشكل جذري في نقل «الرباعية» الى عتبة الفعل بعدما لاقت الفكرة اعجابه ودعمه. الفكرة برزت عبر الأمم المتحدة عندما تبناها الأمين العام كوفي انان وعمل عليها مبعوثه الخاص لعملية السلام في الشرق الأوسط، تيري رود لارسن.

في البدء كان الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات طرفاً أساسياً في ذهن «الرباعية» وهي لم تكن في وارد الاستغناء عنه الى حين اندلاع غضب الإدارة الاميركية منه واعتباره عثرة.

بعد ذلك، حدث نوع من التوقف والتجميد لـ«الرباعية»، خصوصاً ان الرئيس الاميركي جورج دبليو بوش بدا كأنه تراجع عن تعهده بقيام دولتين، فقد ظهر كأنه يعطي رئيس الوزراء الاسرائيلي ارييل شارون الضوء الأخضر لتحطيم الحقوق والتطلعات الفلسطينية سوياً مع تحطيم عرفات ورمزه. وكل ما فعلته الإدارة الاميركية ترك الانطباع بأنها انساقت الى كل ما أراده شارون، من تنفيذ هدف «الاستغناء» عن عرفات، الى غض الطرف عن تجاوزات اسرائيل للقوانين الدولية في قمعها وقهرها للفلسطينيين الى «تزاوج» بين الارهاب الذي وقع في عقر دار اميركا وبين «ارهاب» المقاومة للاحتلال.

ما ساعد شارون في اطروحاته افتقاد الوعي الفلسطيني لأهمية هذه الاطروحات وابعادها. فتصرف الرئيس الفلسطيني على طريقته الخاصة على رغم فوات أوانها وانعدام فوائدها مع ادارة بوش، وتمسك بتقليدية قيادته من دون ادراك واستيعاب ما حدث في اميركا في ١١ ايلول (سبتمبر) ٢٠٠١ بالعمق الذي كان عليه ان يتحلى به كقائد ورمز للمعاناة الفلسطينية ولتطلعات الفلسطينيين. انما الاسوأ هو ما فعلته فصائل فلسطينية لم تستدرك اثر فكرها التقليدي في الوقت الذي اقترنت فيه وسائل هذا الفكر مع وسائل استخدمتها أطراف ارادت استغلال القضية الفلسطينية لمآربها الخاصة.

باختصار، حدث تصادم رهيب خلف هوة عميقة بين المفهومين: مفهوم المقاومة ضد الاحتلال بما «يبرر» استخدام أي وسيلة بما فيها سلاح العمليات الانتحارية في وجه تفوق سلطات الاحتلال بصفتها «السلاح المتوفر»، وبين مفهوم هذا السلاح ووظائفه في الساحة الاميركية والدولية بصفته إرهاباً صرفاً.

تتباهى الفصائل الفلسطينية التي تتبنى العمليات الانتحارية، ومن يدعمها في الساحتين الفلسطينية والعربية، بإنجازات انهاك اسرائيل واجبارها على البحث عن بديل. ما يفوتها، أو تتعمد تجاهله، هو الكلفة الحقيقية البعيدة المدى على الفلسطينيين. فهذه العمليات «سوّدت» القضية الفلسطينية وعدالتها، كما أقحمت عليها أجندة أطراف آخرين نسفوا بأعمالهم كل تعاطف مع الفلسطينيين الذين استخدموهم «سلعة» في غاياتهم الأبعد.

لا شك ان اسرائيل، تحت سوط العمليات الانتحارية، ستزداد انهاكاً وتوتراً وسيتراجع اقتصادها اكثر وتصبح اكثر هشاشة، انما في نهاية المطاف، لن تزول اسرائيل قبل ان تزيل الفلسطينيين. ولذلك، فإن الخيار هو إما الدمار المتبادل أو قيام الدولتين.

البعض بين الفلسطينيين والاسرائيليين يفضل خيار محو الآخر على قيام دولتين، والبعض الآخر لا يرى حلاً سوى الدولتين. إذا انتصر اصحاب الخيار الأول فإن المنطقة العربية ستبقى رهينة هذا الصراع، بما يعطل نموها والتحاقها بركب العالم الحضاري، كما سيزداد الصراع والتصادم الديني بين الاسلام وبقية العالم، علماً بأن معارك المسلمين ليست فقط مع اليهود، وانما مع المسيحيين والهندوس وغيرهم من الديانات. بالطبع فإن اليهود ايضاً سيدفعون ثمن السماح للمتطرفين بينهم بإملاء المسار. والنتيجة ذاتها على الجميع: صراعات ودمار متبادل.

الخيار البديل متاح، وتتيحه الآن «الرباعية» بقيادة اميركية، وبمساهمة من الرئيس الاميركي تتعدى السياسة المعهودة ويمكن وصفها بأنها ذات اندفاع ديني صادف انه في المسار المعارض لاندفاع المتطرفين نحو الهلاك. هذا الخيار هو قيام دولتين، جنباً الى جنب.

وتكراراً، فإن الأمر والقرار عائد الى القاعدتين الشعبيتين، الفلسطينية والاسرائيلية. لكن القاعدة الشعبية تحتاج دائماً الى قيادات. والقيادتان الفلسطينية والاسرائيلية متضاربتان وفي خلاف عميق. لذلك، قد تكون هذه من الحالات النادرة حيث للقاعدة الشعبية حق القرار المصيري، وحيث كل قاعدة شعبية في حاجة الى مخاطبتها عبر وسائل غير تقليدية من الطرف الآخر.

لن يكون للشعب الفلسطيني أو حتى لرئيس الوزراء محمود عباس ان يبني استراتيجية وعلاقات مع شارون حصراً، فهذا رجل تصعب الثقة به الى حين اثباته انه اكتسبها. وبالتالي، في حال تبني الفلسطينيين قيادة وشعباً حل الدولتين على أساس «خريطة الطريق»، عليهم التوجه الى الشعب الاسرائيلي ليكون سنداً لهم. والعكس يطبق على الرأي العام الاسرائيلي. فإن اختار حقاً خيار الدولتين، عليه ايضاً ان يتوجه الى الشعب الفلسطيني وان يمكّن محمود عباس من القيام بالمهمة.

«الرباعية» مفيدة جداً في تحقيق وانجاح مثل هذا المسعى للأسباب الآتية:

أولاً، هذه شراكة لا سابقة لها، علماً بأن الولايات المتحدة استفردت حيناً بملف الصراع العربي – الاسرائيلي، واستبعدت احياناً عدة كلاً من الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي عنه، وعملت بحذر وتردد وأقل قدر من الثقة مع روسيا (الاتحاد السوفياتي اثناء الحرب الباردة). الآن، توجد شراكة دولية ببعد اقليمي يضم مصر والسعودية والأردن، عقدت العزم على ايصال «خريطة الطريق» الى الهدف.

ثانياً، يوجد إدراك واقرار من ناحية الاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة وروسيا بأن الدور القيادي في «الرباعية» يجب ان يكون للولايات المتحدة ليس فقط بسبب عظمتها المميزة وانما ايضاً بسبب علاقتها العضوية مع اسرائيل، لذلك اتفق ثلاثي «الرباعية» على ان لا استغناء عن القيادة الاميركية، وان لا حرج للثلاثي في لعب دور «المكمل» من دون انتقاص من أهميته.

ثالثاً، دور روسيا المكمل ليس هامشياً، إذ ان لروسيا في هذه الحقبة من التاريخ، علاقة باسرائيل ذات عمق داخلي وليست فقط علاقة جيدة بين دولتين. فلروسيا تأثير في القاعدة الشعبية الاسرائيلية علماً بأن عدداً كبيراً من الفاعلين فيها جروا اليها من روسيا. وهذا يعطي روسيا وزناً سياسياً مميزاً.

رابعاً، كذلك الأمم المتحدة لها دور مميز اذ انها تمثل الشرعية الدولية، بقرارات مجلس الأمن والجمعية العامة، كما ان لها ذراعاً عملياً داخل الأراضي الفلسطينية عبر «الانروا» وغيرها من الوكالات الدولية. ناحية الشرعية مهمة ايضاً في توفير الغطاء السياسي لكل من يمارس الضغوط على أطراف النزاع، وفي تبديد الشكوك، وكذلك في تبني اجراءات مثل الرقابة الدولية.

خامساً، الاتحاد الأوروبي فائق الأهمية كمساهم بالمعونات والأموال لبناء الدولة الفلسطينية، كما انه بالاهمية ذاتها في البعد السياسي خصوصاً في التأثير في سورية ولبنان لجهة الشق الفلسطيني – الاسرائيلي في «خريطة الطريق» كما لجهة الشق السوري – اللبناني منها.

ما يميز «الرباعية» هو تنظيم نفسها في مبادرة واحدة، وتقدمها بخطة موحدة، واتفاق أطرافها على أدوار مكملة من دون مزاحمة ولا منافسة.

وما تعتبره الأطراف الثلاثة في «الرباعية» تطوراً جذرياً هو الالتزام الشخصي للرئيس الاميركي بتنفيذ «خطة الطريق» التي صاغتها «الرباعية». لذلك ترى ان هذه فرصة نادرة يجب البناء عليها، ليس فقط للفلسطينيين والاسرائيليين وانما ايضاً للسوريين واللبنانيين.

وحسب مسؤول غير اميركي، رفيع المستوى، فإن بوش وضع ثقله وصدقيته وراء تنفيذ «خريطة الطريق» ولن يتوقف عن ذلك لأسباب انتخابية، لذلك على السوريين واللبنانيين ان يلتحقوا بالعربة قبل ان تتركهم على الهوامش. على سورية ان تفعل شيئاً ملموساً، خصوصاً مع التنظيمات الفلسطينية في دمشق، اذ انها تبدو الآن كأنها تحاول تعطيل جهود «الرباعية»، وهذا أمر خطير. وتخطئ سورية بافتراضها ان مواقف بوش عابرة وأنه سيتخلى عن رهانه على «خريطة الطريق» عند الحملة الانتخابية. تخطئ ايضاً بحق شعبها اذا مضت في هذا الافتراض.

مسؤول اميركي وصف التحول في الاستراتيجية الاميركية بأنه من الحض والحث والإصرار من بعيد، الى الدور الاميركي المباشر في تمكين الأطراف من التنفيذ. وهذا يُطبق على الاجراءات الأمنية المطلوبة من محمود عباس، كما على اقتلاع المستوطنات واجراءات وقف الاغلاق والحصار المطلوبة من شارون، كما على وقف الدول العربية تمويل المنظمات الفلسطينية المعارضة لـ«خريطة الطريق».

البيت الأبيض يقول لاسرائيل اليوم ما لم يسبق ان قاله لها. يقول «كفى»، اذ ان المواقف والاجراءات الاسرائيلية بدأت تلحق الضرر بالعلاقة الاميركية – الاسرائيلية، وبدأت تسبب الإحراج للإدارة الاميركية، حسب المسؤول الاميركي الذي اشترط عدم ذكر اسمه.

هذه التطورات تضع الفلسطينيين أمام خيارات مصيرية، ومع ذلك لا تزال الحروب الفلسطينية مستمرة لتفرز من سيتحمل مسؤولية اشعال حرب اهلية فلسطينية، ومن سيتحمل مسؤولية احباط قيام دولة فلسطينية مستقلة بمساعدة دولية لا سابقة لها.

نيويورك – راغدة درغام

المأزق الأميركي يتفاقم في العراق وبيئة المقاومة تتشكل

عصام العريان *

■ من السهل أن تكسب معركة ولكن من الصعب أن تربح الحرب.

هذا هو مأزق الاحتلال الأميركي في العراق اليوم. لقد سقطت بغداد في ٩ نيسان (ابريل) ولكن من الواضح اليوم أن الوضع لم يستقر في العراق، وما هو أكثر وضوحاً أنه لن يستقر لفترات طويلة وأن بيئة غنية بالدوافع نحو تصاعد المقاومة تتشكل بسرعة كبيرة في العراق ضد الاحتلال الأميركي.

إذا تصاعدت المقاومة وتنوعت ضد الأميركان في العراق فإن مشاريع العصابة التكساسية وحلفائها من المحافظين الجدد في الادارة الأميركية ستتبخر وستصبح الامبراطورية الأميركية أقصر الأمبراطوريات عمراً في التاريخ. لن يصبح العراق النموذج الديموقراطي الذي بشّر به هؤلاء في المنطقة العربية بل سيتحول كما يقول المراقبون الى فيتنام أخرى أشد ضراوة لأسباب لا تخفى، منها ان الخصم فيها مجهول، وأن أسلحة المواجهة تعددت وأن النمط الاستشهادي منها قد يكون هو الذي سيجبر قوات الاحتلال على الرحيل تاركة فوضى تعم العراق وستكون نقمة على كل جيرانه وأولهم الذين ساعدوا في احتلاله.

لن تسفر الجهود الأميركية المنحازة عن تسوية القضية الفلسطينية لأن الدلائل لا تبشر بأي خير، فإعلان الحرب «البوشية الشارونية الدحلانية» على حركات المقاومة الفلسطينية وبالذات «حماس» من دون تقديم أي مقابل للشعب الفلسطيني، ومع الانذار بإرسال قوات أميركية لمساعدة قوات الاحتلال الصهيوني في المواجهة ستتحول ساحة المواجهة العربية ضد أميركا من حدود باكستان الى أفغانستان مروراً بإيران حتى المتوسط، وستتعبأ المشاعر العربية والإسلامية ضد كل ما هو أميركي بصورة لم يسبق لها مثيل.

كان تراجع بوش المهين عن لوم شارون وموفاز بسبب محاولة اغتيال المجاهد الرنتيسي الفاشلة تحت ضغط الكونغرس وعصابة إسرائيل، رسالة الى كل العرب بأنه لا أمل في تحقيق حل عادل في عهد إدارة بوش للقضية الفلسطينية وأن من الأفضل لهم اذا لم يساندوا المقاومة والشعب الفلسطيني فعلى الأقل لا يساهموا في ذبح المقاومة وإنهاء الانتفاضة من دون مقابل، وليعلم الجميع أن الشعب الفلسطيني احتاج ست سنوات بعد اوسلو لينتفض على نتائجها، وفي ظل الاوضاع الحالية فلن يحتاج أكثر من ستة شهور لينتفض من جديد.

ان وضع القضية الفلسطينية في صورة ان المشكلة هي حركات المقاومة يشبه عملية التقمص النفسي بسبب ما يعانيه الاحتلال الأميركي في العراق، فتشابه الحالتين الفلسطينية والعراقية هو انذار لكل الاطراف ورسالة الى الجميع. المأزق الكبير للأميركيين والبريطانيين في العراق هو الفشل الضخم على الاصعدة كافة في الادارة المدنية (رحيل غارنر والخطوات المرتبكة لبريمر في حل الجيش وحزب البعث والفشل في جمع الأسلحة).

وفي العثور على أسلحة الدمار الشامل، حيث تتصاعد الاصوات في بريطانيا وأميركا للتحقيق في الفضائح الاستخباراتية والسياسية التي ستكتشف خباياها مع مرور الايام والشهور من دون العثور على أية أسلحة دمار شامل في تشكيل حكومة عراقية تمثل كل ألوان الطيف العراقي وتتولى التفاهم مع الاحتلال حول القضايا اليومية ثم انهاء الاحتلال سلماً كما يدعي الأميركيون.

في فهم طبيعة الشعب العراقي وتركيبته القبلية والعشائرية ومزاجه النفسي، حيث تتوالى الاحداث التي تبين الجهل المركب والغرور المتزايد لدى قوات الاحتلال في التصدي للمقاومة العراقية المتزايدة في الفلوجة والضلوعية وغيرها، وعدم القدرة على فهم خلفيات هذه الحركات المقاومة ومن وراءها؟

في رسم مستقبل العراق تصريحات رامسفيلد العصبية حول حرمان العراقيين من التعبير عن رغبتهم في اقامة جمهورية إسلامية خوفاً من ان تكون امتداداً للجمهورية الإسلامية في ايران، وما هو البديل الديموقراطي الذي يقترحه رامسفيلد؟ لا شيء يبدو في الافق. فكل ما يتعلق بالمستقبل غائم ومجهول وغامض. ووصل القول بمنظّر الديموقراطية في المنطقة ريتشارد هاس الى القول بأن تحقيق الديموقراطية في العراق ليس سهلاً وسيأخذ وقتاً طويلاً وسيمر بمراحل انتقالية.

هذا الفشل المتراكم والمتصاعد على كل الاصعدة هو الذي يهيىء البيئة العراقية لمقاومة شرسة ضد الاحتلال وهو الذي سيدفع بكل القوى الوطنية العراقية لتبني خيار المقاومة كبديل وحيد حيث سينتهي الرهان او التفاهم مع قوات الاحتلال الى فشل كبير، قد يأخذ هذا وقتاً قصيراً أو طويلاً إلا أنه سيصبح الخيار النهائي حتى لهؤلاء القادمين على صهوات الدبابات الأميركية.

ليست الكراهية المسبقة للأميركان، وليست الغريزة الطبيعية ضد اي احتلال، وليست حملات الرفض التي يقودها السياسيون، وليست ايران وجهودها، كل ذلك كان يمكن أن يضعف تأثيره لو نجح الأميركيون ولو نصف نجاح، ولو صدق الأميركيون ولو ربع صدق، انه الفشل المركب الذي أظهر حجم الخديعة التي سارع الى تصديقها الهاربون من جحيم صدام فكانوا في النهاية كالمستجير من الرمضاء بالنار.

يبدو السيد بريمر بعد السيد غارنر متخبطاً متحيراً في ادارة شؤون الشعب العراقي ومتخبطين في قراراتهم، يتم الدعوة الى مؤتمر وطني ثم يؤجل الى أجل بعيد غير مسمى، يتم تشكيل هيئة خماسية ثم سباعية ثم تتبخر حيث لا دور لها ولا افق مستقبلي للمشاركين فيها، يتم حل الجيش وطرد القيادات الادارية البعثية ثم يعلن بريمر الندم على ذلك القرار.

وكما هو واضح التخبط في القرارات الإدارية فإن ادارة الامن العراقي سواء للقوات الغازية المحتلة او للمواطنين تحظى باهتمام بالغ الا أنه فاق في تخبطه كل التوقعات. فلا شرطة حقيقية، وحملات نزع السلاح فشلت لأنه من الطبيعي وفي ظل غياب الامن ان يحتفظ المواطنون بسلاحهم لحماية ارواحهم وأعراضهم وممتلكاتهم، وللقيام بواجبهم الشرعي والوطني بعد ذلك اذا لزم الأمر، وهو سيلزم حتماً كما هو واضح، لتحرير بلادهم من هذا الاحتلال، وهذا ما يدفع الأميركيون المحتلون لنزع السلاح الشعبي. وفي بلد تمثل العشيرة والقبيلة ركيزته الاجتماعية سيكون ثمن نزع السلاح باهظاً وسينتهي الى فشل مؤكد لأن شرف القبيلة هو سلاحها، وهيهات ان يتم نزع السلاح قبل انهاء القبيلة، ولتنتظر أميركا طويلاً قبل ان تقرر الرحيل إن هي فرضت تغيير النمط والنسق الاجتماعي للشعب العراقي.

حملات الدهم للبحث عن السلاح طالت البعثات الدبلوماسية (البعثة الفلسطينية) ثم مقرات الحلفاء والمقربين (الحزب الديموقراطي الكردستاني / البارزاني) ثم بيوت المواطنين العراقيين في المدن المختلفة، وبذلك يتم تجييش كل العراق تدريجياً ضد الاحتلال الأميركي.

الهواجس الأميركية من التدخل الايراني في العراق تدفع الى الاسراع بتنفيذ بقية مخطط القضاء على محور الشر والتثنية بإيران بعد العراق، وفي ظل القلق الأميركي المتصاعد من الفوضى والفشل في العراق يتم تحميل ايران المسؤولية من دون دليل، والمهم هنا أن المقاومة المتصاعدة تأتي حتى الان من المواقع السنية وليست الشيعية، وكان الحديث اولاً عن «فلول حزب البعث» و«أنصار الرئيس المخلوع صدام» واذا بالحديث ينتقل الى «المتطوعين العرب» والمجاهدين ضد أميركا، وهذا حديث عجيب غريب وكأن الإعلام الأميركي يريد أن يقول إن الشعب العراقي راضٍ ومرحب بالاحتلال وأن هناك أيادي خارجية وقوى غريبة هي التي تقود المقاومة ضد الاحتلال، وهذه اهانة ما بعدها اهانة لوطنية وعقيدة كل العراقيين، وستفيق أميركا بعد ايام أو شهور على هول الصدمة حيث سينقلب كل العراقيين بمن فيهم حلفاؤها عليها وقد بدت بوادر رفض السياسة الحالية حتى من أحمد الجلبي ومن مسعود البارزاني وغيرهم وعندما تنتهي صدمة الفرح بزوال حلم الطاغية وبروز الخطر الأميركي على الجمهورية الاسلامية ايران والانحياز الفظيع لادارة بوش لجرائم شارون وعدم قدرة الأميركان على التعاطي مع ملفات العراق والمنطقة وتوالي الجرائم ضد الابرياء في العواصم العربية سينتقل الشيعة بمرجعيتهم وأحزابهم السياسية ورموزهم الوطنية الى مربع المقاومة وسينصهر الشعب العراقي كله حتى بأكراده في مقاومة وطنية تعيد ذكريات ثورة العشرين وانتفاضة الشيعة والاكراد وستغير دول الجوار حينئذ مواقفها صيانة لمصالحها الوطنية والقومية وحفاظاً على استقرار المنطقة التي تريد السياسة الأميركية زرع الفوضى فيها لصالح الكيان الصهيوني فقط وعلى حساب مصالح العرب والمسلمين والفرس والأتراك.

على أميركا ان تواجه اليوم أعباء الاحتلال وإعادة الإعمار كقوة احتلال مكروهة وعلى بلير وبوش مواجهة لحظة الحقيقة امام شعوبهم وبرلماناتهم حيث انكشف المستور من خديعة اسلحة الدمار الشامل.

وعلى الشعب العراقي ان يستمر في رفض الاحتلال البغيض سلماً وبكل الوسائل المشروعة وأن يبدأ الوطنيون العراقيون صياغة ميثاق وطني يشارك فيها كل ابناء العراق في الداخل والخارج لرسم مستقبل العراق بدلاً من تعليق الآمال على قوات الاحتلال والتفاهم معها ولماذا لا يتم تشكيل حكومة عراقية بمبادرات عراقية في الداخل والخارج تقوم بواجب التفاوض لإنهاء الاحتلال والدعاية للقضية العراقية خارج العراق، في الوقت نفس الذي يحمي فيه المقاومة المتصاعدة لإجبار الاحتلال على مواجهة الحقائق على الأرض عبر استنزاف لقواه حتى يرحل سريعاً عن العراق.

وعلى ايران أن تنتبه للمؤامرات الأميركية وألا تجعل ثمن المواجهة مع أميركا هو الإصلاح الحقيقي الجاد الذي يطالب به معظم الشعب الايراني الذي انتخب خاتمي على وعد الإصلاح داخل النظام ومن داخل المؤسسة الدينية. وعلى الحكومات العربية والشعوب الإسلامية ألا تستسلم لوهم الهزيمة الساحقة امام المخططات الأميركية فهي إن شاء الله الى فشل ذريع.

* نائب سابق في البرلمان المصري عن «الإخوان المسلمين».

مقاومة في العراق

■ ليس مستبعداً ان تنشأ حال مقاومة للاحتلال الاميركي ـ البريطاني في العراق. لكن ما نشهد حالياً لا يعتبر من هذه المقاومة. انه على الارجح مزيج من ظاهرتين. تتمثل الاولى بوجود بقايا من النظام السابق تمكن عناصرها من الانسحاب ويحاولون اعادة تجميع صفوفهم وتنظيم عملهم. اما الثانية فتعكس احتجاج قطاعات تضررت بشكل مباشر من جراء قرارات اتخذتها سلطة الاحتلال في اطار اعادة تأسيس الحكم والجيش والمؤسسات من نقطة الصفر.

كما حصل في تصفية انظمة مشابهة في المعسكر السوفياتي السابق، كان من الطبيعي توقع تداعيات ومضاعفات من النوع الذي يظهر الآن. فالتركة حين تكون ثقيلة ومتجذّرة لا يمكن ان تزول بسرعة وتلقائية، وقد تتطلب أحياناً وقتاً طويلاً لاخماد نارها. ولا بد من ملاحظة ان ممارسات قوة الاحتلال خلال فترة قمع جيوب «المقاومة» هذه ستترك أثراً في وجدان العراقيين. فهؤلاء لم يعودوا يراهنون على «انصار صدام» مهما نجحوا في توجيه ضربات موجعة للاميركيين، لكنهم ناقمون طبعاً على الاوضاع التي اوجدها الاحتلال سواء بتشريد الآلاف الذين كانوا في عداد الجيش او الحزب او بعض الوزارات. فالمسألة هنا تمس مئات آلاف العائلات في حياتها ومستقبل افرادها.

هناك العديد من القوى السياسية العراقية التي رفضت هذه الاجراءات وانتقدتها، وهناك قوى اخرى أيّدت وقوى فضّلت التأييد الصامت، بمعنى انها غير معنية بها. لكن اي حكم جديد سينشأ بعد سنة او سنتين او اكثر سيكون مدعواً لمواجهة المشاكل الاجتماعية التي افتعلتها القرارات الاميركية. صحيح انه لم يكن ممكناً الابقاء على حزب البعث، الا ان محوه بجرّة قلم اجراء غير واقعي قد يرضي فئات مهمة في المجتمع العراقي لكنه بمثابة «ابادة» حياتية لكمّ هائل من البشر.

اما الجيش فلم يكن حلّه هو الخيار الوحيد والأمثل، ليس فقط لان فيه منحى «الإبادة» ايضاً، وانما لأنه يعطي مؤشرات بالغة السلبية الى نيّات خفية لدى سلطة الاحتلال. في اي بلد، في العراق او في سواه، هناك تأطيرات معينة وجدت للحكم ومؤسساته، ولم يكن أمام ابنائه سوى الانضواء في تلك الأطر كما يحدث دائماً سواء من قبيل احترام الدولة او من قبيل سلوك سبل الانتماء المتوفرة. قد تكون الأطر احزاباً او أسراً حاكمة، وقد تكون جيشاً ووظائف وفرصاً واعرافاً. الى اي حد تمكن محاسبة الشعب او بعضه اذا انحرف النظام او جنحت قيادته نحو الاستبداد، وباتت تشكل خطراً داخلياً وخارجياً؟ هذه مسألة طرحت نفسها في مختلف حالات تصفية الانظمة. الفارق في العراق ان ظروفه منعت نشوء قيادة جاهزة ومنسجمة وطنياً لتسلّم مقاليد الحكم. بل ان كل سيناريوات تصفية النظام السابق كانت تصطدم باحتمالات نشوب حرب اهلية، ذات طابع طائفي وعرقي وسياسي. لم تكن عند النظام البائد بدائل، ولم يرد عند الاميركيين احتمال التفاوض معه على ترتيبات التخلي عن الحكم، لذا تبدو سلطة الاحتلال اليوم كبديل وحيد، بل كضمان وحيد من تدهور الاوضاع الى اقتتال اهلي.

بديهي ان وجود القوة الاميركية على ارض العراق هو ما يمدّ الوضع بشيء من التماسك، لكن العقل السياسي الاميركي الذي يسعى الى اعادة هندسة البلد يبقى مشكوكاً في حكمته وفاعليته، لأن له قوالبه وانماطه وانحيازاته واجندته غير المعلنة. هناك الكثير من التجريب والتسرّع في خيارات سلطة الاحتلال، ما يعني انها في صدد اقامة طويلة، لا بد ان تعتمد فيها على القوة وعلى القوة فقط لتسيير امورها. أما التوصل الى الصيغة السحرية للحكم الذي يصهر جميع القوى في اطاره، فيبدو مسألة لا تنفك تؤجل نفسها، وهي لن تولد من فكرة تلمع في ذهن بول بريمر وانما من حوار وطني لا بد ان تشجع سلطة الاحتلال عليه اذا كانت تفكر في رحيل مبكر.

لن تختلف القوى السياسية العراقية، مهما تناقضت مواقفها، على الاساليب الاميركية في معاركة «جيوب المقاومة» المنبثقة من بقايا النظام السابق. لكن مواقفها ستتوضح اكثر كلما اقترب الاميركيون من المسألة الجوهرية، اي صيغة الحكم وهويته وتقاسم مراكز النفوذ فيه. وكلما تقاربت هذه القوى من التوافق كلما أزف موعد رحيل الاحتلال. وكلما حال الاحتلال دون توافقها كلما غذّى نزعة المقاومة التي ستكون عندئذ «مقاومة وطنية» ضد هذا الاحتلال.

عبدالوهاب بدرخان

الثالوث اللبناني الذي لا ينشأ

■ الصاروخ الثالث على رئيس الحكومة اللبنانية أطلقه اجتماع مجلس الوزراء. فرفيق الحريري اليوم حاكم – معارض: لا يستطيع أن يحكم ولا يجرؤ على أن يعارض. وضعه يلخّص الانتقال اللبناني الصعب والمعاق. وفي هذا الانتقال يمكن توقع أي شيء يتصل بالحريري بوصفه «المعتدل» والمحب لـ«الاعتدال». يمكن توقع الهزيمة تلو الهزيمة، ومتى؟ فيما القوى الدولية التي يقال إنه يشبهها تنتصر. لكن الموضوع ليس الحريري. أيضاً: يمكن توقع كل سوء يطال لبنان.

وخريطة الحياة السياسية في ذاك البلد تبدي قدراً قليلاً من التكيّف: فهو ربما كان يواجه تحولاً كبيراً في الصيغ والمعادلات التي يستند اليها. لكنْ: السياسيون اللبنانيون ليسوا مستعدين لأن يواجهوا التحديات والمعادلات المذكورة. ليسوا مستعدين لأن يدعوها تمر بأقل كلفة ممكنة. هكذا: يبدون مستعدين فقط لتلقي الصدمة تلو الصدمة و... انتظار الأقدار. والأقدار تتقدّمها أنيابها.

لماذا لا يفعلون؟ إما لأنهم خائفون أو لأنهم طائفيون وضيقو الأفق.

المقصودون ثلاثة: البطريرك الماروني نصر الله صفير ورئيس الحكومة رفيق الحريري والقطب الدرزي وليد جنبلاط.

هؤلاء إذا ما التقوا الآن ساعد واحدهم الآخر، وتجنب ثلاثتهم الصواريخ وجنّبوا البلد نتائج تحول مضطرب.

في غضون ذلك: قد يكون في وسع لقائهم أن يجذب قيادات شيعية ليس رئيس المجلس نبيه بري أولها بالضرورة لكنه قد ينضم اليها. وبالطبع ففي وسع كتلة كهذه ان تؤمّن لأية سلطة في المستقبل قاعدة جدية: عدداً وقدرات اقتصادية وتمثيلاً سياسياً.

لكن أياً من الثلاثة ليس في الوارد.

نصر الله صفير: قد يكون في الوارد أكثر من الاثنين الآخرين. تصريحاته ومواقفه الأخيرة دليل واضح. كذلك: إعطاؤه الأولوية لمبدأ التطبيق السليم للطائف على مبدأ زيادة الصلاحيات لرئيس الجمهورية (الماروني). لكن البطريرك يحتاج الى الكثير من القوة في طائفته التي تتآكلها التوجهات الراديكالية. ويحتاج أيضاً الى استجابة لمواقفه لدى باقي الطوائف بما يقوّيه في طائفته.

رفيق الحريري: مشروعه الوطني المعقول شديد الارتكاز الى تعبئة طائفية غير معقولة. استنهاض الغرائز وتحريكها بسبب وبلا سبب. لكريم بقرادوني يُستحضر عمر بن الخطاب! هذا كثير ومما يصعب ضبطه لاحقاً. مما يصعب اعادة إدراجه في مشروع وطني هادىء. الذين يخرجون من القمقم لا يعودون بسهولة اليه: تجارب لبنانية وعربية كثيرة تقول ذلك.

وليد جنبلاط: يمضي في لعبة باتت مضجرة يحركها رفض الواقع الذي لا مهرب منه في النهاية. الشكل الذي تتخذه اللعبة الآن أن الانتصار الأميركي على العراق، وربما غداً على سورية، سيعيد الموازنة الى الصدارة. سيعيدهم الى زعامة الجبل. انه يعتمد حسبة كمال جنبلاط في الخمسينات والستينات (التحوط من حلف بغداد لبنانياً ثم من «الحلف الثلاثي») لا حسبة كمال جنبلاط في أول شبابه في الأربعينات (ضرورة بناء بلد حديث). في الستينات والخمسينات كانت النتيجة حروب ١٩٧٥ و١٩٥٨. في الأربعينات كانت استقلال لبنان.

صفير والحريري وجنبلاط إما أن يلتقوا فتكون بداية لاعادة تأسيس البلد بالحد الأدنى من الخسائر، والحد الأعلى من الكفاءة في مواجهة الاضطراب المقبل. وإما أن يجبنوا أو يغلّبوا نوازع طوائفهم: عند ذاك قد تنهال الصواريخ على الجميع.

حازم صاغيّة

الحياة AL HAYAT
أسسها كامل مروة عام ١٩٤٦
رئيس التحرير: جورج سمعان
Editor-in-Chief: George Semaan

رئيس التحرير المساعد: غسان شربل
نائب رئيس التحرير: عبد الوهاب بدرخان
مديرا التحرير: زهير قصيباتي
عبدالله اسكندر
المدير العام: روبير جريديني

■ المكتب الرئيسي (لندن):
KENSINGTON CENTRE, 66 HAMMERSMITH ROAD, LONDON, W14 8YT
– التحرير: الهاتف: 020-76029988 الفاكس: 020-73714215 / 020-73714225 التلكس: 925746
– الادارة العامة: الهاتف: 020-6029988 الفاكس: 0207-6024963 التلكس: 925751
– التوزيع: الهاتف: 0207-6052123 0207-6052122 الفاكس: 0207-6024514
■ مكتب باريس: 162 Rue du Faubourg Saint Honore 75008 - PARIS Tel: 42 25 9204 Fax: 42 25 9217
■ مكتب بيروت: الوسط التجاري – شارع المعرض – مبنى دار «الحياة» – ص.ب ١١/١٢٤٢
هاتف: ٤ / ٣ / ٢ / ١ / ٩٨٧٩٩٠ (٠١) فاكس التحرير: ٩٨٣٩٩٥ (٠١) فاكس الادارة: ٩٨٣٩٢١ (٠١)
■ مكتب الرياض: جرير بلازا – الدور الرابع – شارع العليا العام
ص.ب. ٦٨٩٠٧، الرياض ١١٥٣٧، الهاتف: ٤٦١٥٦٧٥ / ٤٦١٥٤٩٦ / ٤٦١٥٤٠٢، الفاكس: ٤٦١٥٣٢٥
ادارة التسويق: هاتف: ٥٤٠٢ ٤٦١، فاكس: ٧٥٣٢ ٤٦١ .
■ مكتب جدة: شارع الاندلس، بناية تهامة، الطابق الثالث. ص.ب. ٢٣٥٦٨، جدة ٢١٤٣٦، الهاتف: ٦٥٣٤٤٢٦، ٦٥٣٢٢٠٢ الفاكس: ٦٥٢٠١٥١
■ مكتب الدمام: الدمام، شارع الملك فهد، مبنى تهامة تليفاكس : ٠٣-٨٤٣٤١٠٠
■ مكتب القاهرة: ٨ شارع رستم المتفرع من شارع اميركا اللاتينية، شقة ٥ الدور الثاني، جاردن سيتي
الهاتف: ٧٩٥٠٠٤٠ و ٧٩٢٠١٦٩، الفاكس: ٧٩٥٨٠٤٣
■ مكتب دمشق: مزة فيلات غربية – برج تاله ط ٩ الهاتف: ٠٠٩٦٣١١٦٦١٠٠٠/١، الفاكس: ٠٠٩٦٣١١٦٦١٥٠٠٠
– الاعلانات: تهامة للاعلان والعلاقات العامة والتسويق
جدة – شارع الامير/محمد بن عبد العزيز (التحلية سابقاً)، مبنى بن حمران،
المملكة العربية السعودية، الهاتف: ٦٦١٧٧٧٧-٢-٩٦٦ (١٥ خطاً) – الفاكس: ٦٦١٧٧٤٤-٢-٩٦٦
TIHAMA - MEM